العنوان:	الذات ومسألة الحب في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي
المصدر:	حوليات الجامعة التونسية
الناشر:	جامعة منوبة - كلية الآداب والفنون والإنسانيات
المؤلف الرئيسي:	شعرانه، المنصف
المجلد/العدد:	ع 42
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1998
الصفحات:	241 - 267
رقم MD:	128669
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	IslamicInfo, AraBase, HumanIndex
مواضيع:	النقد الأدبي ، تقدير الذات ، الحب ، الأدب العربي ، الأندلس ، ابن حزم ، علي بن أحمد، ت 456 هـ، الثقافة الإسلامية ، رسالة طوق الحمامة ، النثر العربي، الفقهاء المسلمون
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/128669

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

شعرانه، المنصف. (1998). الذات ومسألة الحب في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي.حوليات الجامعة التونسية، ع 42، 241 - 267. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/128669

إسلوب MLA

شعرانه، المنصف. "الذات ومسألة الحب في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي."حوليات الجامعة التونسيةع 42 (1998): 241 - 267. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/128669

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

حوليات الجامعة التونسية
عدد 42 / 1998 ص ص 241-267

الذّات ومسألة الحب في طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي*

الأستاذ : المنصف شعرانة

قل أن حظيت رسالة في الحبّ بما حظيت به رسالة طوق الحمامة في الألفة والآلاف(*) من شهرة تمثّلت على مرّ العصور في استنساخها وطبعها شرقا وغربا وإقبال الباحثين عليها قراءة وتحليلا .

إنّنا لا نبالغ إذا قرنّا شهرة ابن حزم الأندلسي (ت 456 هـ/1064م) برسالة في الحبّ على جليل كتاباته الأخرى وأهميّتها في الأصول [1] والفقه [2] والكلام [3] والمنطق [4] وهو المنظّر للمذهب الظاهري في

(*) اعتمدنا النّسخة الصّادرة عن الدّار التّونسيّة للنّشر . تحقيق وتقديم صلاح الدّين القاسمي . تونس 1986 .

(1) انظر في ذلك كتابه : الاحكام في أصول الأحكام - نشر أحمد شاكر - القاهرة (ت.د) .

(2) انظر في ذلك كتابه : المحلّى . نشر أحمد شاكر (8 مجلّدات) . بيروت (د.ت) .

(3) انظر في ذلك كتابه : الفصل في الملل والأهواء والنحل - بيروت 1975.

(4) انظر في ذلك كتابه : التقريب لحدّ المنطق - نشر إحسان عبّاس . بيروت 1959.

الأندلس خاصم فيه الفقهاء ووضع فيه الكتب وتعرّض من أجله للفتن والمحن " وثبت عليه إلى أن مات " [5] .

ولعلّ غرابة الجمع بين التّأليف في الفقه والكتابة في الحبّ كانت سرّا من أسرار لفت الانتباه وذيوع الكتاب وانتشاره بين جمهور واسع من النّاس . وقد ألف الضمير الإسلامي أنّ الحديث في الحبّ من لغو الكلام وأحاديث الباطل وهو من اهتمامات الشّعراء الغزلين وأصحاب البطالة والأولى بالعلماء أن يصرفوا العمر القصير إلى الاشتغال بأمور الدّيّانة من قرآن وحديث وفقه وهو تصوّر شجّعه الفقهاء وسعوا إلى تثبيته في الأذهان بتفضيلهم للعلوم الشّرعيّة على بقية المعارف الأخرى . لذلك كان موضوع الحبّ عندهم ملتبسا بالهوى وقد ذمّ الدّين الهوى وحذّر منه لهذا ترى ابن الجوزي (ت 597 هـ/1200م) يكتب على استحياء في مسألة الحبّ ويعترف أنّه نزل في كتابه ذمّ الهوى " عن يفاع الوقار إلى حضيض التّرخّص " [6] .

وقد انتبه ابن حزم إلى أنّ الكتابة في الحبّ مسلك محفوف بالمخاطر سيؤلّب عليه المتعصّبين من الفقهاء : " وأنا أعلم أنّه سينكر عنّي بعض المتعصّبين عليّ تأليفي هذا ويقول : إنّه خالف طريقته وتجافى عن وجهته " [7] .

وحصل فعلا ما كان قد تنبّأ به ابن حزم الأندلسي ففي الثّلث الأوّل من القرن الثّامن للهجرة، يتّهم شمس الدّين بن قيّم الجوزيّة (ت 751 هـ/ 1350 م) ابن حزم بالانشغال بالعشق والإقبال على الملاهي على شدّته

---

(5) المقّري : نفح الطيب ج 2 ، تحقيق إحسان عبّاس ، بيروت 1988 ، ص 76 .

(6) ابن الجوزي عبد الرّحمان : ذمّ الهوى تحقيق مصطفى عبد الواحد ، الطّبعة الأولى - 1962 ، ص 1 .

(7) ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ص 263.

وحزمه في المذهب الظاهري " على قدر يبسه وقسوته في التّمسّك بالظاهر... انماع في باب العشق والنظر وسماع الملاهي المحرّمة، فوسّع هذا الباب جدّا " [8] .

إنّ صورة ابن حزم الأندلسي فقيها وعاشقا منظرا للحبّ لصورة عجيبة لافتة للانتباه مغرية ومحيّرة في نفس الوقت تطرح جملة من المشكلات ومن أهمّها : " الذّات، ومسألة الحبّ " . وهي المشكلة الأساسيّة التي حاولنا في ضوئها قراءة طوق الحمامة .

فهل الرّسالة محاكاة للذّات تروي سيرة صاحبها وتقصّ قصّة غرامه أم أنّها إعادة إنتاج للذّات ونحت كيان عاشق مثال منشود تسعى الثّقافة الإسلاميّة إلى تثبيته من خلال أدبيات الأخلاق الغزيرة وكتب السّير والطّبقات ومرايا الملوك .

ظلّت الدّراسات المهتمّة بطوق الحمامة حينا من الدّهر تلهج بقيمة الكتاب الوثائقيّة باعتباره صورة عن صاحبه وعن عصره [9] حتّى غدا الكتاب منافسا لكتب التّاريخ في تصوير البيئة الأندلسيّة في القرن الخامس للهجرة، إلاّ أنّ بعض الدّراسات الحديثة قد انتبهت إلى أنّ النّصّ لا يحكمه منطق التّاريخ بل تحكمه قوانين الكتابة الإبداعيّة فمنطق الوصف غير منطق الواقع ومنطق الفن الأدبي غير منطق التّاريخ الوثائقي .

---

(8) ابن قيّم الجوزيّة : روضة المحبّين ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت) ، ص 130 .

(9) نذكر من بين هذه الدّراسات على سبيل المثال :

- أحمد أمين : ظهر الإسلام ج 3 ، ط 10 ، بيروت (د.ت) ، ص 212 .
- الطاهر أحمد مكّي : دراسات عن ابن حزم وكتابه : طوق الحمامة ، ط 3، دار المعارف ، مصر 1981 ، ص 232 .
- محمّد طه الحاجري : ابن حزم صورة أندلسيّة ، بيروت ، 1982 ، ص 1952 .
- جودة مدلج : الحبّ في الأندلس ، ط 1 ، بيروت 1985 ، ص 264 .

ولعلّ من أهم هذه الدّراسات الحديثة وضوحا في الرّؤية وطرافة في التّخريج بحث الدكتور حمادي صمّود : " هل الأدب وثيقة تاريخيّة ؟ " [10] فقد انتهى بعد اختبار نصّ من الباب السّابع والعشرين من الرّسالة الموسوم بـ " باب السّلو " اختبارا أسلوبيا إلى أنّ النّصّ " واقع في أفق سنّة أدبيّة وطريقة في الكتابة وأنموذج متحكّم في هذا القبيل من الأخبار " [11]. وأنّ قصد الكاتب ليس محاكاة الواقع بل " قصد الكاتب بناء النّموذج والإعلاء من شأنه نمطا مطلقا متعاليا عن اليومي الذي يعيشه النّاس " [12] لا شكّ أنّ النّصّ تحكمه شروط الكتابة وقوانين النّوع، **ولكنّ علاوة على ذلك يتأسّس على خلفيّة ثقافيّة إسلاميّة مخصوصة** فالنّصّ الظّاهر مشدود إلى نصّ باطن مسكوت عنه لأنّ الكاتب لا يبوح إلاّ بالقدر الذي تسمح به الثّقافة التي ينتمي إليها فوراء سلطان الذّات سلطان آخر أشدّ حضورا على تخفّيه واحتجابه بين الحروف وهو سلطان الذّات الجماعيّة التي تتحكّم في منطق الخطاب وتسوسه .

إنّ تفرّد الذّات وتميّزها عن الآخر " الجمع " في الثّقافة الإسلاميّة الوسيطة غاية تطلب فلا تدرك " فقلّما تحدّث الأسلاف عن أنفسهم في كتابتهم وإن فعلوا فأقصى ما يبلغونه إنّما هو العمل بالمبدإ الإسلامي : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر " [13] .

---

(10) حمّادي صمّود : هل الأدب وثيقة تاريخيّة ؟ مقال ورد ضمن كتاب " بحوث مهداة إلى محمّد الطّالبي في عيد ميلاده السّبعين ". منشورات كليّة الآداب ، منوبة 1993 ، ص 103 .

(11) نفس المرجع ص 113.

(12) نفس المرجع ، ص 110.

(13) Arkoun Mohamed : Contribution à l'étude de l'humanisme arabe au IV/Xè Siècle : J. vrin1970, p. 34.

KILITO Abdelfattah : - L'auteur et ses doubles, Essais sur la culture arabe, classique, Seuil - Paris 1985, p 10.

- L'auteur de paille, Poétique n° 44, Paris 1980, p 394.

إنّ الطّموح المباشر من وراء هذا العمل يكمن في تتبّع سياقات الذّات وتجلّياتها وشروط إنتاجها في طوق الحمامة وذلك بالوقوف عند المسكوت عنه المحتجب في ثنايا الخطاب عسى أن نتمكّن من محاصرة الرّؤيا التي يصدر عنها المؤلّف في فهمه للظّاهرة الغراميّة .

I ـ تجلّيات الذّات في طوق الحمامة :

يبدو حضور الأنا " المفرد " المتكلّم مكثّفا في طوق الحمامة فكثيرا ما يعضد ابن حزم أقواله وآراءه في الحبّ بأخبار عاشها وشاهدها ومواقف أدركها وعاينها وهو ينبّه إلى ذلك في كلّ مرّة ينقل فيها خبرا أو يعلّق فيها على حدث أو يعلّل فيها ظاهرة و" عنّي أخبرك أنّني أحد من دهي بهذه الدّاهيّة (يعني موت حبيبته نعم) [14] ووقع لي مثل هذا [15] ولقد شاهدت النّساء وعلمت من أسرارهن [16]، ولقد شاهدت النّساء [17] وإنّي أخبرك أنّي ما رويت من ماء الوصل ولا زادني إلاّ ظمأ [18] ممّا يجعل من الذّات عنصرا مكوّنا من مكوّنات الخطاب الغرامي في الرّسالة فالنّصّ في جانب منه بوح وإفضاء بما يجيش في صدر الكاتب من أشواق وآلام على هوى قد هوى ودولة عزّ قد دالت وزمان وصل أضحى عافيا لذلك تبدو الرّسالة من هذا الوجه شكلا من أشكال التّنفيس عن نفس ظمأى مكلومة، يتأسّى في أحضانها بالذّكرى فرارا من الحاضر الموجع المقرون بالهزيمة والتّشريد وضياع الوطن والحبيبة

---

(14) ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ، ص 175.

(15) نفس المصدر ، ص 117.

(16) نفس المصدر ، ص 121.

(17) نفس المصدر ، ص 121.

(18) نفس المصدر ، ص 138.

والمجد المتمثّل في الوزارة " فأنت تعلم أنّ ذهني متقلّب وبالي مهصّم ممّا نحن فيه من نبوّ الديّار والجلاء عن الأوطان وتغوّل الزّمان ونكبات السّلطان وتغيّر الإخوان وفساد الأحوال وتبدّل الأيّام، وذهاب الوفر، والخروج عن الطارف والتّالد واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد والغربة في البلاد، وذهاب المال والجاه " [19] وهو يشير بذلك إلى المحن التي أصابت الأندلس من جرّاء تقلّبات الأوضاع السيّاسيّة أيام خلافة المهدي (سنة 399 هـ/1009م) وألقت بظلالها على عائلة ابن حزم فأجبرتها على الانتقال من دورها المحدثة إلى منازلها القديمة بالجانب الغربي من قرطبة وتنكّر الزّمان لوالده الوزير أحمد بن سعيد بعد رجوع الخليفة هشام المؤيّد إلى العرش فأعفي من الوزارة وانكمش على نفسه في زوايا النّسيان إلى أن فاضت روحه (سنة 402 هـ/1012م) [20] بعد وفاة ابنه البكْر أبي بكر (401 هـ/1011م) في طاعون قرطبة .

تبدو الرّسالة قطعا من الذّكريات البعيدة يسترجع فيها ابن حزم أيّام السّعد والحبّ في قرطبة . وإنّ تتبّع تشكّل الذّات في هذه الذّكريات المتداخلة مفيد في رصد تجربة ابن حزم الغراميّة ومعرفة ظروف إنتاج خطاب الحبّ في طوق الحمامة .

يتعرّض ابن حزم في باب المساعد من الإخوان إلى ظروف النّشأة الأولى وأهميّة المرأة في حياته الفكريّة والوجدانيّة : " ربّيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرّجال إلاّ وأنا في حدّ الشّباب وحين تبقّل وجهي * وهنّ علّمنني القرآن وروّيننني

---

(19) نفس المصدر ، ص 264.

(20) ARNALDEZ ROGER : _ Grammaire et théologie chez IBN HAZM, Paris 1955, p 18, _ IBN HAZM, EI2

(*) تبقّل الوجه : نبت شعره .

كثيرا من الأشعار ودرّبنني في الخط " [21] يمثّل هذا الشّاهد أهميّة حضور المرأة المكثّف في تكوين صورة ابن حزم الفتى الوجدانيّة والثّقافيّة فقد نشأة مترفة في قصور قرطبة في الزّاهرة بين الجواري اللاّئي علّمنه وأشرفن على تربيته وتنشئته فولّد فيه ذلك شعورا رقيقا وإحساسا مرهفا بالجمال مكّنه من الانفتاح مبكّرا على عالم الحبّ وفنونه في سنّ الغضاضة واليفاعة " ولم يكن وُكدي وإعمال ذهني منذ أوّل فهمي، وأنا في سنّ الطّفولة جدّا إلاّ تعرّف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك [22] وأشرف على أسرار المرأة واقتحم عوالمها المحتجبة ما يمتنع على الكثير في ظلّ تعسّف المجتمع التّقليدي على المرأة التي ظلّت تعيش الحبّ من وراء ألف حجاب .

ووفّرت له البيئة الموسرة شيئا من التّفتّح بما توفّره حياة القصور لأمثاله من الأمراء والوزراء ورجال الدّولة الأمويّين من ترف ومتع .

فقد كان ابن حزم وهو فتى يشهد مجالس الغناء والتّطريب في بيته وبيوتات أبناء الوزراء أترابه من ذلك ما يرويه في **باب السّلو** عن مجلس الغناء الذي أقيم بمصطنع بدارهم " فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرّؤساء، تجمّعت فيه دخلتنا ودخلة أخي رحمه الله من النّساء ونساء فتياتنا ومن لاث بنا من خدمنا ـ ممّن يخف موضعه، ويلطف محله... فأخذت العود وسوّته بخفر... ثمّ اندفعت تغنّي ... فلعمري، لكأنّ المضراب يقع على قلبي وما نسيت ذلك اليوم، ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدّنيا " [23] .

---

(21) ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ص 121.

(22) نفس المصدر ، ص 121.

(23) نفس المصدر ، ص 205 ـ 206.

أقبل ابن حزم على ارتشاف كؤوس الهوى في سنّ مبكّرة وهو لا يبخل على القارئ في هذا المجال بسرد بعض من قصص غرامه " وإنّي لآخبرك أنّي ألفت في أيّام صباي ألفة المحبّة جارية نشأت في دارنا، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودمائتها " [24] ويروي ابن حزم في صراحة وعفويّة تولّعه بالجارية وكيف كان يقتفي خطواتها ويتعمّد التّعرّض إليها حتّى يستميلها إليه إلاّ أنّها كانت بعيدة المنال تبتعد عنه كلّما دنا وتغيّر طرق وجهتها فتقصد أبوابا أخرى كلّما اقترب منها أو كاد . " فإنّي لأذكر أنّي كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنسا بقربها متعرّضا للدّنوّ منها فما هي أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة فأتعمّد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزّوال إلى غيره " [25] ويذكر ابن حزم أن لا أحد من النّسوان على كثرتهن قد تفطّنّ إلى مطاردته للجارية لأنّ كلّ واحدة منهن منشغلة باقتفاء أثر حبيب وتصيّد أليف " ولم يشعر سائر النّسوان بما نحن فيه لأنّهن كنّ عددا كثيرا وإذ كلّهن يتنقّلن من باب إلى باب لسبب الاطّلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطّلع من غيرها عليها . واعلم أنّ قيافة النّساء، فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج في الآثار " [26] .

ويعترف ابن حزم أنّه ما روى أبدا من ماء الوصل ولا شفي من داء العشق " ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسآمة ولا أرهقتني فترة، ولقد ضمّني مجلس مع بعض من كنت أحبّ، فلم أجل خاطري في فنّ

---

(24) نفس المصدر ، ص 205.

(25) نفس المصدر ، ص 206.

(26) ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ، ص 206 .

من فنون الوصل إلاّ وجدته مقصّرا عن مرادي وغير شاف وجدي ولا قاض أقل لبانة من لباناتي " [27] .

تبدو الرّسالة إلى هذا الحدّ صدى للذّات ورجعا لأشواقها وصبواتها وحالات حبّها فتكون بذلك ضربا من الاعترافات وهو بعض من الدّين الذي قطعه ابن حزم على نفسه في فاتحة الرّسالة، أو لم يعد صديقه وكنيته " أبو محمّد " [28] بأنّه سيستجيب لطلبه وسيصنّف له رسالة " في صفة الحبّ ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا متزيّدا ولا مفنّنا موردا ما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه... بادرتُ إلى مرغوبك" [29] .

لكن إلى أيّ حدّ يمكن أن نطمئن إلى ما وعد به ابن حزم وإلى ما أورده في كتابه عن سيرته الغراميّة ؟

وإلى أيّ مدى كانت الكتابة في طوق الحمامة ملتزمة بالشّفافيّة التي قطعها على نفسه، تحكي ما يجري في عالم المحبّين حتّى كأنّها واقع معيش تشبع رغبة الصّاحب في الاطلاع على أخبار الألاف وتحوّل بأمانتها غيابه حضورا ليتمتّع بما يدور بين المحبّين من هيام ووصال وهو الصّبّ الذي حرم وصل من أحبّ حتّى كاد يطفأ همّا بسبب الفتن التي تتالت على الأندلس كقطع اللّيل وحالت بينه وبين من أحبّ **بالمريّة** وهو نفس الصّديق الذي نزل بابن حزم ضيفا في **شاطبة** " ولعهدي بصديق لي داره بألمرية، فعنّت له حوائج إلى شاطبة فقصدها وكان نازلا بها في منزلي مدّة إقامته بها وكان له بألمرية علاقة هي أكبر همّه وكان يؤمل

---

(27) نفس المصدر ، ص 138 ـ 139.

(28) يبدو أنّه لدة ابن حزم وأنّه على صلة وثيقة به .

(29) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص 43.

تبتيتها وفراغ أسبابه وأن يوشك الرّجعة ويسرع الأوبة ... فانقطعت الطّرق بسبب هذه الحروب وتحوميت السّبل واحترس البحر بالأساطيل فتضاعف كربه إذ لم يجد إلى النصراف سبيلا البتّة " [30] فتكون الرّسالة من هذا الوجه مواساة للصّديق في تفجّعه وكان كلاهما قد فقد أليفا وامتحن في حبيب .

إنّ المتأمّل في رسالة طوق الحمامة لا يكاد يظفر بشيء كثير عن حياة ابن حزم الغراميّة ولا عن حياة عشق الذّوات التّاريخيّة الأخرى المحيطة به من أصدقائه وأقاربه وأصحاب الجاه والسّلطان في عصره فلا نعرف شيئا ولو عارضا عن حياته الأسريّة وما يتّصل بأمّه أو زوجته خارج اعترافاته الذّاتيّة عن غراميّاته عدا حديثا عابرا عن أخيه أبي بكر وعشق زوجته عاتكة له وتولّعها به حتّى الموت وهو لعمري أمر مباح لا تلام فيه حرّة، فأن تخلص زوجة لزوجها وتهبه مشاعرها وتضعه موضع حبّها فهذا من المناقب وباب عزيز من الوفاء .

وإذا تأمّلنا في اعترافاته الغراميّة رأينا أمورا عامّة قلّما تثير الانتباه إمّا لكونها أمرا مشتركا بين جميع من أحبّوا أو لكونها موغلة في الكنايات فلا يتحدّث عنها إلاّ رمزا في باب الشّعر الذي كان يتوّج به قطع النّثر في الرّسالة .

في باب من أحبّ صفة لم يستحسن بعدها غيرها ممّا يخالفها [31] يعترف ابن حزم أنّه أحبّ جارية شقراء الشّعر وما يرافق الشّقرة من بياض البشرة وزرقة العينين . " وإنّي أخبرك أنّي أحببت في صباي جارية لي شقراء الشّعر فما استحسنت سوداء الشعر ولو أنّه على الشمس أو

(30) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص 172.

(31) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص 84.

على صورة الحسن نفسه " [32] ويعترف أنّ والده وجماعة خلفاء بني مروان كلّم مجبولون على تفضيل الشقرة ويفسّر ذلك بكونه ضربا من الحنين إلى " الأمّ والأصل " نزاعا إلى أمّهاتهم (الشّقروات) حتّى قد صار فيهم ذلك خلّة " [33] .

وأيّ غرابة في أن يحبّ المرء شقراء الشّعر أو سوداء الشّعر؟ طالما أنّ القلوب بيد اللّه يصرّفها أنّى يشاء .

وأمّا في الخبر الثّاني المتعلّق بحبّه، فيعترف فيه بحبّه لجارية اسمها نعم، ولعلّها قد تكون زوجته أو محظيّته وأنّها الحبيب الأوّل، بادلته المحبّة وكافأته في المودّة وأنّه كان أبا عذرها فجمعته بها الأقدار واخترمتها اللّيالي ومرّ النّهار وصارت ثالثة التّراب والأحجار [34] ورغم ما في النّصّ من جرأة الحديث عن الوصل فإنّ ذلك يفسّر بما توفّر لأبناء القصور من الأمراء والوزراء من المحظيّات وملك اليمين، هذا إن لم يتأكّد التّأويل بأنّ المعنيّة بالأمر هي زوجته .

فقد كانت الفتاة كما يصف ابن حزم في غاية الحسن خلْقا وخلُقا [35] لا يطعن في عفّتها ولا يتجرأ على شرفها وعرضها .

وأنّى لنا أن نشكّ في عفّتها أو في عفّة ابن حزم الأندلسي والرّجل يقسم بأغلظ الأيمان بأنّه " بريء السّاحة، سليم الأديم، صحيح البشرة، نقيّ الحجزة، وإنّي أقسم باللّه، أجل الأقسام أنّني ما حللت منزري على فرج حرام قطّ، ولا يحاسبني ربّي بكبيرة الزّنا، منذ عقلت

---

(32) نفس المصدر ، ص 85.

(33) نفس المصدر ، ص 85.

(34) نفس المصدر ، ص 179.

(35) نفس المصدر ، ص 179.

يومي هذا واللّه المحمود على ذلك ، والمشكور فيما مضى ، والمستعصم فيما بقي " [36] .

أمّا الخبر الغرامي الثّالث فيتعلّق بحبّه لجارية على ملك امرأة من معارفه مشهورة بالصّلاح والتّقوى وكانت الجارية قمرا في سماء الحسن جرى على وجهها ماء الشّباب ففاض وانساب وتفجّرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيّرت وانبعثت في خدّيها أزاهير الجمال فتمّت واعتمّت [37] وكانت لا تحتجب عنه على مألوف العادة لأنّه من أقرباء الدّار ولكن ابن حزم ارتحل عنها بعد أن خاف الفتنة وتهيّب ارتكاب المحضور لأنّ الشّيطان غير مأمول الغوائل " [38] .

إنّنا لا نعتبر طرافة الكتاب كامنة في كونه ثورة على التّقاليد أو تمرّدا على عادات المشرق كما يعتقد حسين مروة في كتابه. **تراثنا كيف نعرفه** [39] أو في كونه صورة طريفة من أدب الاعتراف وبابا جريئا من أبواب الأدب المكشوف [40] كما يحلو لفاروق سعد. بل إنّنا نرى طرافة الرّسالة الحقيقيّة تكمن في طريقة التّناول لمسألة الحبّ تناولا لا يخلو من تسامح وموضوعيّة في عصر تحجّرت فيه السنّة الثقافيّة واستبدّ فيه الفقهاء بالرّأي فغيّبوا موضوع الحبّ لالتباسه في أذهانهم بالزّنا ، وإنّ جرأة ابن حزم تتمثّل في إبراز المسكوت عنه من الوجدان العربي والحديث عن الحبّ باعتباره عاطفة إنسانيّة سامية لا تنكرها

---

(36) نفس المصدر ، ص 228.

(37) نفس المصدر ، ص 228.

(38) نفس المصدر ، ص 230.

(39) حسين مروة : تراثنا كيف نعرفه ط. 2 ، بيروت 1985 ، ص 306 ـ 307 .

(40) فاروق أسعد : أورد هذه الآراء في الدّراسة التي جعلها مقدّمة لتحقيق كتاب طوق الحمامة لابن حزم ، بيروت 1972 ، ص 20 .

الأديان ولا تحرّمها الشّرائع " وليس بمنكر في الدّيّانة ولا بمحضور في الشّريعة إذ القلوب بيد اللّه عزّ وجلّ " [41] وقد وجد ابن حزم في الدّين وفي السّنة الثّقافيّة الإسلاميّة في عهود انفتاحها مظهرا من مظاهر التّسامح تجاه موضوع الحبّ باعتبار أنّ الإسلام في جوهره ليس نسكا أعجميّا ولا رهبانيّة نصرانيّة " فمن أدّى الفرائض المأمور بها واجتنب المحارم المنهي عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين النّاس فقد وقع عليه اسم الإحسان ودعْني ممّا سوى ذلك وحسبي اللّه " [42] وهو على كلّ حال ليس من السيّئات والفواحش التي يتوقّع عليها العذاب [43] .

لا شكّ أنّ تميّز ابن حزم يعود أساسا إلى نبذه للأوهام والأفكار المحنّطة وتجاوزه للآراء السّائدة التي التبس فيها الإسلام الحقيقي بإسلام خرافي شعبي قائم على التّرهيب والتّحريم .

تخلّص ابن حزم من سلطان الوثوقيّة الطّاغية وربقة التّقليد وكانت قيمة موقفه في النّبش عن اللاّمفكّر فيه وأخذ الاعتراض على الرّاسخ من الآراء مأخذ الجد، يقول في لهجة ساخرة من فهم الفقهاء السّطحي والمغلوط للحبّ : [من الطويل]

يلومُ رجالٌ فيك لم يعرفوا الهوى
وسيّان عندي فيك لاح وساكتُ
يقولون : جانبت التّصاونَ جملة
وأنت عليم بالشّريعة قانتُ

(41) ابن حزم : طوق الحمامة ص 47.
(42) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص 264.
(43) نفس المصدر ، ص 263.

فقلت لهم : هذا الرّياءُ بعينه
صراحا ، وزي للمرائين ماقتُ
متى جاء تحريم الهوى عن محمّد
وهل منعه في محكم الذّكر ثابتُ
إذا لم أوافق محْرَما أتّقي به
مجيئيَ يوم البعث والوجه باهتُ
فلست أبالي في الهوى قولَ لائم
سواء لعمري : جاهر أو مخافتُ [44]

ولكن هل يعني تسامح ابن حزم مع ظاهرة الحب خروجا عن مألوف العادة وخرقا لقوانين الأنموذج كما حدّدته السّنّة الثقافيّة الإسلاميّة ؟

إنّ القول بأنّ كتاب ابن حزم الأندلسي ثورة وجدانيّة وقطيعة إبستيميّة مع المخيال الإسلامي يبقى قولا مبالغا فيه ، لأنّ ابن حزم وإن عرف بالجُرْأة في كتابه في الحب وهو الفقيه الظّاهري فإنّه لم يخرج عن التّصوّر الإسلامي للحب ولا عن الذّائقة الشّرقيّة العربيّة في الحب العفيف .

أو لم يذكر في فاتحة الرّسالة بأنّ كتابه في الحب يندرج ضمن أدبيّات " الحضّ على طاعة اللّه عزّ وجلّ والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر [45] ثمّ ، أو لم يذكر في خاتمة الكتاب بأنّه اقتصر في رسالته في الحب " على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلا [46] وأنّه

(44) نفس المصدر ، ص 100.
(45) ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ، ص 45.
(46) نفس المصدر ، ص 263.

يستغفر اللّه تعالى ممّا يكتب الملكان ويحصيه الرّقيبان، وأنّ اتّهامه عمّا لا يليق به ضرب من الظنّ " وما أحلّ لأحد أن يظنّ في غير ما قصدته " [47] ويبقى ما قصده ابن حزم من مسألة الحب مندرجا ضمن الأمر بالمعروف وهي غاية يطمح إليها معظم المؤلفين الذين يكتبون في سياق التّفكير الإسلامي القديم، فالحديث عن الذّات في غالب الأحيان هو حديث وظيفيّ يسعى إلى تأسيس المدينة الفاضلة التي نظّرت إليها أدبيات الأخلاق والسّير. ومن ثمّ فقد بات لدينا من المسلّمات أنّ ابن حزم لا يرسم ذاتا فرديّة تاريخيّة موجودة بل إنّه يسعى إلى تصوير الذّات العاشقة الأنموذج المنشودة التي تباركها السّنّة الثّقافيّة الإسلاميّة الأصيلة في عهد انفتاحها وليست المتحجّرة المنغلقة في عهود استبداد الفقهاء بالرأي والتّأويل فكيف تتجلّى الذّات المثاليّة العاشقة في طوق الحمامة وما هي شروط إنتاجها ؟

II ـ الذّات العاشقة المثال ومسألة الحب

إنّ المتتبّع لطور خطاب ابن حزم في الرّسالة يلاحظ انفصال الذّات التّاريخيّة عن الذّات العاشقة الميتتاريخيّة التي ينظّر لها الكاتب .

وعَدَنا ابن حزم الأندلسي بأنّه سيمتّعنا بنقل تجارب واقعيّة تخصّ ذاته : والذّوات العاشقة التي عاصرها ولكن وعده وعد عرقوب وسرابٌ يحسبه الضّمآن ماء حتّى إذا جاءه لم يجده شيئا . فماذا أضاف ابن حزم فعلا لأدبيّات الحب ؟ وهل خرج فعلا عن الأنموذج السّائر؟ وأنّى له أن يُسلم العنان للقول يذهب به حيث ذهب ويستهويه فيغويه وعيْنُ الرّقيب تُطلّ عليه من النّصّ وتحاسبه خُفية وتحدّد له كلّ خطوة في مسار كتابته وتسوس خطابه في الحب . فوراء ذات الكاتب ذات أخرى أشدّ نفوذا

(47) نفس المصدر ، ص 263.

وأحكم سلطانا وهي ذات الضّمير الإسلامي المتعالي . ومن ثمّ فإنّ ما تسعى الكتابة إلى نحته ليس إلاّ صورة العاشق المثال . فما هي شروط تجلّيه ؟

تتأسّس صورة العاشق المثال على مفهوم الحب الذي حدّده مسبّقا . وهو " اتصال بين أجزاء النّفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرّفيع " [48] وأنّه " استحسان روحاني وامتزاج نفسيّ " [49] ولا يخفى ما في الكون العشقي الذي يرسمه ابن حزم من مثاليّة تجلّت في تعانق الأرواح العاشقة في الأزل قبل أن تصير نطافا وفي المهد، وهي النّظرة المثالية التي تنسج مع رؤية الفلسفات المثاليّة والأديان السّماويّة التي ترى أنّ إنسانيّة الإنسان كامنة في جانبه الرّوحي وليس في الجسد المادّي لأنّ الجسد ظلمة والرّوح نور وهو كذلك عنصر ضعيف وبنية مهزوزة وسبب من أسباب الشّهوة المركّبة في الإنسان وعلى عكسه فالنّفس نورانيّة الجوهر علويّة المنازل وفي ذلك يقول ابن حزم الأندلسي : [من الطويل]

أمن عَالم الأملاك أنت ، أم إنسيّ
أبن لي فقد أزْرى بتمييزيَ العيّ !
أرى هيئةً إنسيّةً غير أنّه
إذا أعمل التّفكير فالجرم علوي [50] *

---

(48) ابن حزم : طوق الحمامة . ص 49.

(49) ابن حزم : طوق الحمامة . ص 51.

(50) ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة و ص 55.
وقد ذهب ابن سينا (توفي 428 هـ - 1037م) في النّفس قبل ابن حزم الأندلسي هذا المذهب في سينيّته الشّهيرة : [من الكامل]

هبطت إليك من المحلّ الأرفع ... ورقاء ذات تعزّز وتمنّع
محجوبة عن كلّ مقلة ناظر ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربّما ... كرهتْ فراقك وهي ذات تفجّع

د. محمّد السّويسي : أدب العلماء . الدّار العربيّة للكتاب . ط. 2 - 1985 . ص 181.

ولمّا كان الحب ذا أصل علويّ نورانيّ فإنّ أفضل المحبّة " محبّة المتحابّين في اللّه عزّ وجلّ ومحبّة القرابة ومحبّة الألفة " [51] لأنّ محبّة العشق هي التّي " لا علّة لها إلاّ على ما ذكرنا من اتّصال النّفوس " [52] وكلّ أنواع الحبّ الأخرى منقضية مع قضاء الوطر وانقضاء العلل حاشى محبّة العشق الصّحيح المتمكّن من النّفس فهي التي لا فناء لها إلاّ بالموت " [53] ولذلك يستغرب ابن حزم من حبّ النّظرة الأولى أو الواحدة لأنّ لصوق الحبّ بالنّفس لا يكون إلاّ مع المطاولة " وإنّي لأطيل العجب من كلّ من يدّعي أنّه يحبّ من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدّقه ولا أجعل حبّه إلاّ ضربا من الشّهوة، وما أن يكون في ظنّي متمكّنا من صميم الفؤاد، نافذا في حجاب القلب، فما أقدّر ذلك، وما لصق بأحشائي حبّ قطّ إلاّ مع الزّمن الطويل " [54] .

لقد بات واضحا أنّ الكون الذي يؤسّسه ابن حزم هو كون العشق العفيف الذي لا يداخله فسق ولا يشوبه مجون .

وينهض الحبّ في تصوّره على **فعل الجميل** لأنّ النّفس جميلة مجبولة على عشق الجميل " فالظّاهر أنّ النّفس حسنة تولع بكلّ شيء جميل وتميل إلى التّصاوير المتقنة " [55] .

ولمّا كان الجمال عنصرا مؤسّسا للعشق، فرض ابن حزم على العاشق قوانين جماليّة صارمة تخصّ الظّاهر المجلوّ والباطن المحتجب وتتجسّد في الظّرف، وهو مدخل للحبّ ورياضة روحيّة بها يبلغ المحب

---

(51) ابن حزم الأنلسي : طوق الحمامة ، ص 51.

(52) ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ، ص 51.

(53) نفس المصدر ، ص 51.

(54) نفس المصدر ، ص 80 ـ 81.

(55) ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ، ص 53.

مقام العشق لأنّ العشق جميل لا يُتوصّل إليه إلاّ بالجميل، وفي جدليّة الظّرف والعشق يقول الوشاء (ت. 356 هـ/936م) " وممّا يستدلّ به على كمال أدبهم ويعرف به رجحان هممهم كثرة استعمالهم " الهوى " وهو من أحسّ مذاهبهم وأجلّ مناقبهم " [56] ويتلبّس مفهوم الظرف بمفهوم العشق حتّى يصير كلاهما دالاّ على الآخر لأنّ الفتى إذا عشق " نظف وظرف ولطف " [57] فكم من غليظ الطّبع تظرّف وجاهل تأدّب وتفر تزيّن [58] ويعني ابن حزم بذلك كلف العاشق الظّريف بمظهره وزيّه وطعامه وشرابه حتّى غدا أمرا معلوما وقانونا مسطورا بين فئة الظرفاء .

والحبّ مولّد للجميل من الفضائل، يهذّب الطّباع ويحفز على المنائب " فكم بخيل جاد وقطوب تطلّق وجبان تشجّع وذوي سنّ تفتّى ومصون تبذّل " [59]. والحبّ سلطان قاهر وسحر عجاب يسهّل للمرء " ما كان يصعب عنده حتّى يُحيل الطّبائع المركّبة والجبلّة المخلوقة " [60] ويمثّل الوفاء أهم مناقب الذّات العاشقة وأشرف صفات النّفس النّاطقة لأنّه مجمع الفضائل كلّها لأنّ الوفاء " مركّب من العدل والجود والنّجدة " [61] ولمّا كان الحبّ لا يُدرك إلاّ بالوفاء فقد رغّب فيه ابن حزم وعدّه " من حميد الغرائز، وفاضل الأخلاق في الحبّ ومن أقوى الدّلائل على طيب الأصل

(56) الوشاء (أبو الطيب) : الظرف والظرفاء تحقيق الدكتور فهمي سعد ط. 1 ، بيروت لبنان 1985 ، ص 121.

(57) نفس المصدر ، ص 18.

(58) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص 59.

(59) نفس المصدر ، ص 59.

(60) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص 55.

(61) ابن حزم : الرّسائل ، جزء 1 ، ص 340.

والشّرف والعنصر" [62] وجعله فرضا لازما على كلّ محبّ صادق " وهو فرض لازم وحقّ واجب لا يحيد عنه إلاّ خبيث المحتد " [63] .

تمثّل فضيلة الوفاء القيمة المركز في تحديد ملامح العاشق المثال لأنّها تمتحن معدنه وتختبر صدق نفسه وهي لا شكّ رياضة روحيّة نبيلة ومجاهدة للنّفس عسيرة خاصّة إذا كان المحبوب غادرا فهي " خطّة لا يطيقها إلاّ جلد قويّ واسع الصّدر حرّ النّفس عظيم الحلم " [64] ولا يكتفي بتقريض الوفاء وتثمينه بل يقدّم صورا عليه كترك مكافأة الأذى بمثله والكفّ عن سيئ المعارضة بالفعل والقول والتّأنّي في جرّ حبل الصّحبة ما أمكن " [65] ويفتخر ابن حزم بذاته وفيّا في سياق غنائيّ وهو الذي جُبل على الوفاء فأضحى سجيّة فيه " فكذلك أنا في السلوّ والتّوقّي فما نسيت ودّا لي قطّ وإنّ حنيني إلى كلّ عهد تقدّم لي ليغصّني بالطّعام ويشرقني بالماء " [66] ويقدّم نفسه مثالا رائعا على الوفاء في تعلّقه بحبيبته نعم بعد موتها والوفاء لذكراها " فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرّد عن ثيابي ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلّة إسعادها وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتّى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليّ مسارعا طائعا وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكراها ولا أنست بسواها " [67] وأمّا القيمة الأخلاقيّة المساوية لقيمة الوفاء التي يرتكز

---

(62) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص 161.

(63) نفس المصدر .

(64) نفس المصدر ، ص 162.

(65) نفس المصدر ، ص 162.

(66) نفس المصدر ، ص 80.

(67) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص 179.

عليها في نحته للعاشق المثال فهي الكتمان " فمن صفات الحب الكتمان باللّسان " [68] لأنّ في الكتمان محافظة على الحبّ وإشفاقا عليه من أن تداخله الآفات وتحفّ به ظنون الآخر سواء أكان رقيبا أو واشيا أو عاذلا أوليس الرّقيب " حمّى باطنة وبرسام مُلحٌّ وفكر مكبٌّ " [69] وأمّا الواشي فهو " السمّ الذّعاف والصّاب الممقر والحتف القاصد والبلاء الوارد " [70] لأنّهما يسعيان إلى إفساد العلاقة بين الحبيبين بضروب تنقيل الأخبار والسّعي بالوشايات واختلاق الأكاذيب وتلبيس الباطل بالحق حتّى يتألّب على العشيقين جمهور العامّة وحتّى بعض الخاصّة من المتعصّبين فيُرميان بالزّنا ويُتّهمان في دينهما لاختلاط موضوع العشق بالجنس والتباسه بالزّنا في أذهان جمهور النّاس لذلك ترى الرّقيب (عين المجتمع) يجدّ في طلب حقيقة الأمر بين الحبيبين " فيدمن الجلوس، ويطيل القعود ويتخفّى بالحركات ويرمق الوجوه ويحصل الأنفاس وهذا أعدى من الحرب " [71] .

ويقدّم ابن حزم أمثلة على بعض من امتحن في حبّه واستشهد في سبيل عشقه فهؤلاء " **آل مغيث** " على وجاهتهم ومجدهم وشرف عنصرهم يُمتحنون بالتّشريد والاستئصال " والتّسجيل عليهم ألاّ يستخدم بواحد منهم أبدا حتّى كان سببا لهلاكهم وانقراض بيتهم فلم يبق منهم إلاّ الشّريد الضّالّ " [72] وذلك بسبب تغزّل أحد أبناء هذه الأسرة بإحدى بنات الخليفة . ولقد قتل المنصور بن أبي عامر الحاجب الأوّل

---

(68) نفس المصدر ، ص 50.

(69) نفس المصدر ، ص 122.

(70) نفس المصدر ، ص 126.

(71) نفس المصدر ، ص 123.

(72) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 102.

(ت 329 هـ/1008م) جارية أراد أن يبتاعها لأنّها غنّت أمامه بشعر غزل في صبح * معشوقته، ويعترف ابن حزم بأنّ ظاهرة التّشدّد على المحبّين والعشّاق بتعلّة حماية العرض وصيانة بيضة الإسلام منتشرة شائعة بين رجال السّلطة " ومثل هذا كثير " [73] وإذا كان أصحاب السّلطة والجاه في الأندلس يقفون هذا الموقف المتعصّب من الظّاهرة الغراميّة على ما شاع عنهم من بعض التحرّر والإقبال على المتع، فما بالك بعامّة النّاس وهم الذّين يدبر الفقهاء قلوبهم ويسوسون عقولهم ؟ وقد اشتدّت شوكة المالكيّة في الأندلس بعد أن أصبحوا طرفا مشاركا في السلطة ومدافعا عنها وهو ما عبّر عنه القاضي عياض في تزتيب المدارك " أخذ هشام بن عبد الرّحمان النّاس جميعا بالتزام المذهب المالكي " [74] بل واستحدث منصبا جديدا في الدّولة سمّاه " المشاور " ويمثّل السّطة الدّينيّة الموازية في الشّوكة للسّلطة السيّاسيّة ويتولاّه مالكيون . وبذلك يمكن أن نفسّر سلطة الفقهاء وخطورة أحكامهم ومضائها على كلّ مخالف سواء أكان الأمر يتّصل بباب القلب والجوارح أم يتّصل بباب العقل وإنتاج الأفكار . أو لم يحرق كتاب إحياء علوم الدّين للغزالي (ت 505 هـ/1111م) في عهد يوسف بن تاشفين المرابطي (ت 533 هـ/1143م) بعد اتّهام الفقهاء له بالتّأثّر بالفلاسفة بصفة عامّة وبإخوان الصّفا بصفة خاصّة [75] وأولم تُحرق كذلك كتب ابن رشد الفلسفيّة في عهد المنصور أبي يوسف الذي خلف أباه على رأس الدّولة الموحّديّة سنة 1184م بعد أن اتّهم صاحبه

(73) نفس المصدر ، ص 102.

(*) صبح: جارية عبد الرّحمان الثّاني وأمّ ولده هشام المؤيد، سلّمت مقاليد الدّولة إلى الحاجب المنصور بن أبي عامر بعد أن كان وكيل أموالها وقد اشتهرت بحبّها له وتولّعها به .

(74) القاضي عياض : ترتيب المدارك ، نشرة بكير محمود ، بيروت 1967، ج 2 ، ص 41.

(75) سعد غراب : حول إحراق المرابطين لإحياء الغزالي - بحث ورد في أعمال الملتقى الرّابع الإسباني التونسي بميوقة 1979 ، المعهد الإسباني العربي للثّقافة ، مدريد 1983 ، ص 133.

بالزّندقة والإلحاد في الملّة " وجمع له فقهاء قرطبة وقضاتها واستجوبوه، ثمّ عملوا محضرا بكفره وزندقته واتّهموا تعاليمه بأنّها كفر محض وصرّحوا باللّعنة على من يقرؤها وأمر الخليفة بإحراق كتبه علانية ومنع تداولها "[76].

وإنّ أصحاب السّلطان وهم حرّاس الشّريعة حريصون على التّودّد للفقهاء وكسب رضاهم حتّى يكسبوا من ورائهم رضا عامّة النّاس الذين يأتمرون بأوامر الفقهاء وينتهون بنواهيهم.

ويورد ابن حزم في سياق تسقّط أخبار العشّاق وامتحان بعض الخاصّة لهم بالتّرقيب والتّعذيب خبر تعذيب امرأة موسرة لجارية لها لافتضاح عشقها لفتى من أهل سيّدتها " فأخذتها وكانت غليظة العقوبة فأذاقتها من أنواع الضّرب والإيذاء ما لا يصبر على مثله جلداء الرّجال، رجاء أن تبوح لها بشيء ممّا ذكر لها فلم تفعل البتّة "[77] لذلك يتحصّن العشّاق بالكتمان حتّى لا يفتضح حبّهم ويتّهموا " بصفات أهل البطالة "[78] ويكون " الكتمان باللّسان وجحود المحبّ إن سئل والتّصنّع وإظهار الصّبر "[79]. وإذا قدّر للعشّاق أن يراسلوا فإنّهم لا يتركون لرسائلهم أثرا ولا رسما، فسرعان ما يغيّبونها حرقا وقطعا أو محوا في الماء لمحو أثرها " فربّ فضيحة كانت بسبب كتاب "[80].

---

(76) محمّد علي أبو ريّان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ط. 2 ، دار الجامعة المصريّة (د.ت)، ص 455.

(77) ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة، ص 141.

(78) نفس المصدر ، ص 99.

(79) نفس المصدر ، ص 94.

(80) نفس المصدر ، ص 94.

ولا شكّ أنّ الكتمان من قيم الحبّ العذري كما عبّر عنه الغزل العذري وموضوع أساسي في أدب الأخلاق " ويمكن باختصار أن نميز بين سرّين يكتمهما العاشق أو الشّاعر العاشق هما سرّ المعشوق وسرّه هو أي كونه عاشقا . أمّا سرّ المعشوق فلا يباح به مطلقا وإنّ هذا السرّ هو في الحقيقة جملة العناصر التي يمكن أن تجعل المعشوق متعيّنا خاصّا واقعيّا عوض أن يكون مطلقا لا شخصيّا .

وأمّا سرّ العاشق فيحسن أن يكتم ولكنّه لا بُدّ أن يُباح لأنّ العاشق يفضحه نحوله وشحوبه وزفراته [81] فلا بدّ للمصدور أن ينفث . وهو ما يجعل من نظريّة ابن حزم في الحبّ تتطابق مع الكون العذري ومع ما رسمه الشّعراء الغزليّون العذريّون [82]

ينخرط مذهب ابن حزم ضمن المنظومة الإسلاميّة التي أسّست مسألة الحبّ على خلفية أخلاقيّة تسعى إلى إقامة علاقات اجتماعيّة في إطار ما أباحته الدّيانة ونظّمته الشّريعة ، لذلك توّج ابن حزم الأندلسي كتابه ببابي قبح المعصيّة وفضل التّعفّف ويمثلان خُمس الكتاب [83] وهي لعمري مساحة كبيرة استأثر بها البابان دلالة على أهميّة المنزع الأخلاقي الذي تتنزّل فيه المسألة الغراميّة ممّا جعل بعض الباحثين يعتبرون كتاب طوق الحمامة كتابا أخلاقيّا [84] في تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق .

---

(81) رجاء بن سلامة ، صوفيّة العشق لو صهلت اللّغة من خلال " المصون في سرّ الهوى المكنون " لابراهيم الحصري (ت 513 هـ) ، حوليات الجامعة التونسية ، كليّة الآداب ، جامعة تونس 1 ، العدد 37 ، السّنة 1995 ، ص 206.
انظر كذلك مقال رجاء بن سلامة :
Taire l'Amour p. 27, Cahier Intersignes Numéro 6 - 7. Printemps 1993 Spécial : L'Amour et L'orient.

(82) Giffent : Love Poetry and Love Theory in Medieval Literature in Arabic Poetry : Theory and Développement, Los Angeles, 1971 p. 107

(83) Gabriel Martinez : L'Amour trace - Arabica, p. 40, Tome XXXIV, Année 1987.

(84) رشال آري، " ابن حزم والحبّ العذري " : تعريب محمّد القاضي ، مجلّة دراسات أندلسيّة ، العدد الأوّل ، ديسمبر 1988 ، ص 58 .

وقد كثّف ابن حزم في هذين البابين من الأحاديث النّبويّة والآيات القرآنيّة التي تحث على الفضيلة والعفّة وتتوعّد الزّناة والمنتهكين للحرمات بسوء العذاب لأنّ في الزنا " إباحة للحريم وإفساد للنّسل والتّفريق بين الأزواج الذي عظّم الله أمره ما لا يهون على ذي عقل أو من له أقل خلاق " [85] لذلك اعتبر ابن حزم أنّ أفضل أنواع الحبّ هو ما كان فيه صاحبه عفيفا تاركا للمعاصي ومقارعة الهوى ومن أهم الآثار التي يستشهد بها في هذا السّياق الحديث المنسوب إلى النّبيّ أحيانا [86] وإلى آثار السّلف الصّالح أحيانا أخرى وهو " من عشق فعف فمات فهو شهيد " [87] وهو من الآثار التي جرى ذكرها في أدبيّات الحبّ تثبيتا لمسألة الحبّ في سيّاق أخلاقي إسلامي .

يُسلمنا البحث في الذّات ومسألة الحب عند ابن حزم الأندلسي إلى نتائج أهمّها :

- إنّ الذّات التّاريخيّة الفرديّة كما تحدّثت عنها كتب السّيرة الذّاتيّة غير موجودة في رسالة طوق الحمامة وإن تحدّث ابن حزم عن ذاته في بعض السّياقات فلا يخفي ما في حديثه من تهذيب وانتقاء واختيار حتى غدت ذاته لا تختلف عن بقيّة ذوات العشّاق في الكون العذري أو مع ما يرتضيه الضّمير الإسلامي فجاءت ذاته مغرقة في الفضائل تمثل في جانب منها الأنموذج الذي يسعى إلى رسمه وتجسيده وهو العاشق المثال .

---

(85) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص 245.

(86) ترى الباحثة راشال آريبي في بحثها " ابن حزم والحب العذري " أنّ طرافة كتاب " الزهرة " تتمثّل في سعي صاحبه إلى استخراج أخلاقيّة عذريّة مستقلّة عن التّصوّف ومرتكزة على الحديث النّبوي : " من عشق فعفّ فكتم فمات مات شهيدا " ترجمة محمد القاضي ، مجلة دراسات أندلسيّة ، العدد 1 ، السنة 1988 . ص 58.

(87) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص 213 .

- إنّ رسالة طوق الحمامة لا تعكس في الحقيقة ذات تاريخيّة متغيّرة نسبيّة **موجودة** بل تطمح إلى تحقيق ذات **منشودة** مطلقة كثيرا ما عبّرت عنها أدبيّات الأخلاق والفلسفات المثاليّة بالإنسان الكامل الذي يتأسّس على صفات جماليّة عينيّة ومناقب أخلاقيّة وهو مثال " يغذّي الحلم بتأسيس المدينة الفاضلة، ولا نرى ابن حزم شاذّا عن سنّة الكتابة في أدبيّات العشق في العصر الوسيط وإن أبدى شيئا من التّسامح في تناوله لظاهرة الحب باعتبارها عاطفة إنسانيّة، فإنّه لم يخرج في خطابه عن الوظيفة الأخلاقيّة التي تشدّ المسألة الغراميّة إلى قيّم دينيّة ثابتة مطلقة لا تأتي عليها عاتيات الزّمان ولا تقلّبات الدّهر أو لم يصرّح في فاتحة رسالته بأنّ كتابه ينخرط في أدبيّات " الحضّ على طاعة اللّه عزّ وجلّ والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر " [88] وأنّ ما يجب تثبيته من أخبار ما كان فيه " الحزم وإحياء الدّين " [89] .

ومن ثمّ نخلص إلى استنتاج هامّ يخصّ، خصوصيّة التّفكير العربي الإسلامي القديم باعتباره تفكيرا وظيفيّا يضع لكلّ قوّة من قوى النّفس وظيفة مسطورة ، لأنّ منطق الحضارة الإسلاميّة في جانب كبير منه يقوم على اختبار الإنسان في كلّ أبعاده وتنظيم ملكاته وسياسة جوارحه على أنموذج قبليّ هو أنموذج المعرفة الإسلاميّة .

---

(88) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص 45.

(89) نفس المصدر ، ص 49.

* المصادر والمراجع :

- المصادر :

ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة ، تحقيق تقديم صلاح الدين القاسمي ، تونس 1986.

ابن حزم الأندلسي : الرّسائل : تحقيق الدكتور إحسان عبّاس ، بيروت ، ط 2 . 1987.

- المراجع :

أ - العربيّة :

امين احمد : ظهر الإسلام ، ج 3 ط 10 ، بيروت (د ت) .

ابن الجوزي عبد الرّحمان : ذمّ الهوى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ط 1 . 1962 .

ابن سلامة رجاء : صوفيّة العشق أو صمت اللّغة من خلال المصون في سرّ الهوى المكنون لابراهيم الحصري . حوليات الجامعة التّونسيّة ، العدد 37 ، السنة 1995 .

ابن قيّم الجوزيّة : روضة المحبين ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د ت) .

رشال آري : ابن حزم والحبّ العذري ، تعريب محمّد القاضي ، مجلّة دراسات أندلسيّة ، العدد الأوّل ، ديسمبر 1988 .

الحاجري محمّد طه : ابن حزم صورة أندلسيّة ، بيروت 1982 .

سعد فاروق : مقدّمته ، لرسالة طوق الحمامة لابن حزم ، بيروت 1972 .

صمّود حمادي : هل الأدب وثيقة تاريخيّة ؟ ضمن كتاب " بحوث مهداة إلى محمّد الطّالبي في عيد ميلاده السّبعين " ، منشورات كليّة الآداب بمنوبة ، 1993 .

عياض القاضي : ترتيب المدارك ، نشرة بيكيو محمود ، بيروت ، 1967 .

غـراب سـعـد : حـول إحـراق المرابطين لإحـيـاء الغـزالي : أعمـال الملتـقى الرّابع الإسبـانـي التّـونسي بميـورقة 1979 ، المعـهـد الإسـبـاني العـربي ، مـدريـد ، 1983 .

مـدلـج جـودت : الحبّ في الأندلس ، ط 1 ، بيروت ، 1985 .

مـروة حسـين : تراثنا كيف نعرفه ، بيروت ، ط 2 . 1995 .

المقّـري أحمد بن محمّد التّلمسـاني : نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب ، تحقيق إحسان عبّاس ، بيروت ، 1988 .

الـوشـاء أبـو الطّيب : الظرف والظرفـاء ، تحقيق فهمي سعد ، ط 1 ، بيروت ، لبنان ، 1985 .

ب ـ الأعجميّـة :

ARKOUN MOHAMED. - Contribution à l'étude de l'humanisme arabe au IVe/Xe siècle : Miskarwayh philosophe et historien, Paris, juin 1970.

ARNALDEZ R. - Grammaire et théologie chez Ibn Hazm, Paris, 1955

- Article Ibn Hazem, Encyclopédie de l'Islam... (2ed.)

BEN SLAMA Raja. - Taire l'amour, cahiers intersignes, numéro spécial ; l'amour et l'orient, printemps 1993.

BIRGE-VITZ Evelyn. - Type et individu dans l'autobiographie médiévale, (in) poètique n 24, Paris 1975.

CORBIN HENRI. - Histoire de la philosophie islamique, Paris, 1964.

GIFFEN A. I. - Love Poetery and Love Théorie in Medéval Literature in Arabic Poetery : théory and developpement. Los Angelos, 1971.

KILITO Abdelfattah. - L'auteur et ses doubles, essais sur la culture arabe classique, Seuil, Paris, 1985.

- L'auteur de paille, poétique, n 44, Paris 1980.

Le jeune Philippe. - Le pacte autobiographique, Paris, Seuil, 1975.

MARTINEZ Gabriel. - L'amour trace, réflexion sur le collier de la colombe, revue arabica. Tome 34/35. 1987.